

حول «الوضوح والغموض»

للاستاذ عباس فضلى خماس

روى لنا الدكتور طه حسين في مقاله (حول قصيدة) حادثة طريفة عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفرنسي بول فاليري، وكان غرضه من استعراض ما دار بين ادباء فرنسا وشعرائها بعد ذبوح هذه القصيدة ان يطرق باب بحث طالما اشتاق الادباء الى طرقة وهو «مقياس فهم الشعر والادب». وكان بحث الدكتور حائما حول هدف اساسي وهو «هل يحسن بالشعر ان يكون واضحا لا خلاف فيه. او ان بعض الغموض فيه مغتفر بل مطلوب؟» وهذا المطلب في نظري جدير بالبحث والتمحيص الى حد بعيد، ولعل المضى في استقصائه يؤدي الى اظهار حقائق جديدة في عالم الادب، قلب أوضاعنا الراحة رأسا على عقب، ويلوح لي ان التوسع في بحث هذا الموضوع بحثا مستفيضا دقيقا ربما انزل بعض امراء الشعر وملوك البيان الذين اعتلوا في اذهان الناس العروش الى الحضيض، وربما رفع بعض غاملي الذكر من الشعراء والادباء الى تلك العروش وقدم اليهم معتذرا صولجان الشعر والادب الذي شاءت الاقدار ان يقتصب منهم اغتصابا.

لقد كتب علينا نحن ابناء هذا الجيل ان ندرس الادب درسا آليا كدرس المعادلات الرياضية والرموز الكيماوية. وقد ترتب على طرز دراستنا هذه ان نكون آليين في نظرنا الى الشعر، آليين حتى في فهمنا اياه، بل وفي طريقة تفهمنا. وهذه النتيجة خلقت قينا

جد، والمزح بطننا بعظما. ونحو ذلك، ففي التزام الجد خروج الى الجفاء، وانحدار الى الجلود

هذا الى أن الرسالة يجب أن تكون بجانب دعوتها الى الاصلاح سجلا للنزعات الادبية على اختلاف أنواعها لم تكن النزعة مستهجرة، تميط قناع الحياء، وتخرق حجاب الحشمة

وأخيرا لك الشكر - يا أخي - على ما حوى كتابك من غيرة صادقة، وعاطفة نبيلة، وما أثرت من موضوع يستحق العناية، ويدعو الى طول التفكير؟

أحمد أمين

نزعة التقليد لا في مزاوله الشعر والادب فحسب بل في طريقة تفكيرنا وفي اساليب محاولتنا فهم اغراضه ومرامييه. مبتعدين في ذلك عن السنن الطبيعية الابتعاد كله. فليسمح لي الاستاذ الكبير بشئ من الحرية فيما أعرض له.

الغمر ص. في الشعر والادب

للغموض في الشعر والادب اسباب معينة واضحة؛ اولها ضعف الاسلوب في التعبير عن الشعور، وثانيها غرابة التعبير وعدم انطباقه على الطريقة المألوفة عند جمهور القراء. وثالثها نقص جزء مهم في الصورة التي يتخيلها الشاعر ويريد ابلاغها الى النفوس. ورابعها ازدحام جملة من الصور الفكرية وتداخلها في رقعة واحدة ضيقة بحيث يتعب العين تبينا دفعة واحدة ويحقد الذهن تصور علاقة اجزائها بعضها ببعض. وخامسا اظهار القطعة الفنية قبل فضولها في الفكر، وقبل اختيارها في النفس. وسادسا ابتعاد الصورة التي يرسمها الشاعر عن تصور الجمهور ومداركهم بما هو مألوف عندهم ومعمود لديهم في معارفهم ومشاعرهم الماضية والحاضرة، حتى في معارفهم ومشاعرهم التخيلية؛ واجزاء الصورة الخيالية التي ترسم في ذهن الانسان تتكون في الحقيقة في المواد التي تألف منها معارفه ومشاعره الماضية والحاضرة عنها

هذه هي العوامل الاساسية لغموض لغة الشعر والبيان اذا كنا ننتد في بحثنا الى الحقائق الصريحة. اما اذ اردنا ان نموه على القراء فنستطيع ان نقول ما يخرج عن نطاق هذه العوامل ونستطيع ان نرغم الناس على ان يتصوروا في القطعة المعقدة بسبب من الاسباب الآتية ذكرها غموضا ينطوي على ابداع قبي، ونقول لهؤلاء الناس ان اذواقكم الفنية أحط من ان تصل الى رؤية هذا الابداع، وان مستوى شعوركم وتفكيركم، أو طأمن أن يدرك هذا الفن البديع المتلفع بهذا الغموض.. لقد جاز الشعر والادب ادوارا غريبة، ووجد الشعر والادب في ظروف عجيبة؛ وكان العامل في هذه الغرابة وهذا العجب النقدة من الكتاب والادباء، فقد لعب بعضهم ادوارا طمس فيها الحقائق وبرز الى الناس الغث سمينا وارغمهم على اعتبار السمين غنا.

ولولا شعوزة هؤلاء النقدة ومهارتهم في تصريف الكلام ومقدرتهم في البيان لكان جمهور الناس يرون في ترتيب طبقات الشعراء والادباء غير ما يرونه الآن. نعم لو ترك هؤلاء الكتاب الناس وشأنهم يقرأون الشعر بصورة طبيعية ويفهمونه كما هو

المقصود منه ، لما كنا الآن مرغبين على ان تؤمن بالاحكام الثابتة في المفاضلة والموازنة بين شاعر وشاعر او بين اديب واديب . ولكن اعتداهم بانفسهم ساقم الى ان يقولوا مثلا ان الشاعر الفلاني اراد بقوله كذا ... كيت وكيت — ولم يقصد كيت وكيت ولعل أقوى حجة يتذرع بها من يرون تحت الشعر الغامض ابداعا فنيا ، هي ان الانسان اذا جابه منظرا رائعا في ثوب جمال من مناظر الكون يرى في المرة الثانية فيه ما لم يره في المرة الأولى ويلتذ بما يراه في المرة الثالثة اشدهم التذاذذ بما رآه في المرتين الأولى والثانية . اما انا فاعتقد ان هذه الظاهرة لا يصح على الاطلاق اتخاذها دليلا على اعتبار الغامض من الشعر ذا قيمة فنية .

فكل بديع في هذا البكون من منظر الى صوت الى شعر يلزمه الوضوح كيفما تكيف وتطور وتصور . والوضوح جوهر الجمال الحقيقي ، اما « الغموض » بمعناه الذي يعرفه الناس فلا يجتمع مع الابداع أو الجمال في صعيد واحد ، وقد يجهد الانسان نفسه ويكد ذهنه اذا سمع قطعة شعرية فيها شيء من الغموض ، وقد يجهد في هذا الاجهاد والكد لذة التوصل الى الصورة النقية المقصودة . فليس من الضروري ان تعتبر هذه اللذة ناشئة من تلس الابداع ، وانما هي ناشئة من التوصل الى نتيجة بعد اجهاد وكد .

لقد ذكر الاستاذ العقاد جملة عبارات يؤيد بها ان وراء الغموض في الشعر والادب ابداعا فنيا ، وكان من جملة ما ذكر ان الانسان قد يقرأ كتابا غير مرة فيجد فيه كل مرة من المعاني ما لم يره في القراءات السابقة . وعندى ان تفسير هذه الحقيقة الراهنة هين ، وعلتها واضحة لا غمضة . هذا اذا لاحظنا ان معارف الانسان التي تسمى فيه شعوره وذوقه ومداركه تتبدل على الدوام وتكيف حسب الظروف المختلفة التي يكون فيها . فالأثر الذي يتركه مطالعة كتاب في نفس الانسان في وقت ما ذو علاقات متنوعة بشعوره وذوقه ومزاجه في ذلك الحين ، وان الانطباعات التي تتولد في نفسه من معاني ذلك الكتاب تناسب مع ما ذكرناه في ذلك الحين فقط . اقول في ذلك الحين فقط ، لأن الشعور والنوق والمزاج ظواهر نفسية تتبدل وتتطور بالنظر الى الظروف المحيطة بالانسان . فليس ثمة غرابة اذا وجد الانسان في مطالعته المتوالية لكتاب ما معاني جديدة لم يكتشفها في مطالعته السابقة . ولا ينبغي ان تعتبر هذه الصفة في الكتاب غموضا ، لأن تبين جميع

المعاني والمرامي المقصودة في الكتاب دفعة واحدة امر مستحيل ، ولا يتمكن الذهن من استيعاب جملة معان دفعة واحدة . والذهن مثل العين او سائر الحواس . فكما أن عينك اذا وقعت على رقعة تحتوي على عدة اشكال لا تحيط بها جميعا دفعة واحدة ولكنها تتمكن من ذلك بتوجيه البصر الى كل شكل بصورة خاصة ، وكما ان الأذن اذا سمعت الحاناً مختلفة لا يمكنها ان تؤلف بين هذه الالحان الا اذا أنصتت لكل لحن على حدة ، كذلك الذهن لا يتمكن من الوجبة البيكولوجية - ان يدرك كل ما ودع في كتاب من معان دفعة واحدة ، وهذا ما يجعل الانسان يكتشف في قراءتها المتوالية لكتاب واحد معاني جديدة .

ولكن الخاصة من الأدباء يأبون الا ان يخترعوا لهذه الظاهرة الطبيعية النفسية اصطلاحا ادبيا وهو مرامى الى الادبيات طه والعقاد فاسموه « بالغموض » . فسر لنا الاول قصة « المقبرة البحرية » ، للشاعر الفرنسي بول فاليري وتبسط في وصف ما دار حولها من مناقشات وآراء في غموضها وعدم اشتغالها على معان واضحة . فقال من جملة ما قال ان : « كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة ان لم تبين المعاني التي اودعها قصيدته فهي تبين شيئا آخر اظنه اقوم واجل خطرا من هذه المعاني ، وهو مذهب الشاعر في فن الشعر وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الرضوح الذي يفسد الفن افسادا ويقربه من الابتذال . »

ولكن ! اذا لم تتمكن القصيدة من بيان المعاني التي يودعها الشاعر فيها فهي اذن ليست قصيدة ، ولك ان تسميها ماشئت . ان لم تستطع ان تودع المعاني التي تريدها الالفاظ التي تقولها فانت والصامت او الهاذر سواء . وما هو هذا - الشيء الآخر - الذي يظنه الدكتور اقوم واجل خطرا من هذه المعاني ؟ : « هو مذهب الشاعر في فن الشعر . »

لاريب في ان مذهب الشاعر في فن الشعر أجل خطرا من المعاني باعتبار ان العناية بالمذهب هي التي تقرى المعاني وتصلبها فظهرها ناضجة واضحة براءة ، ماضية في نفوذها الى النفس . ولا أدري كيف نوفق بين هذين النقيضين : الا يتمكن الشاعر من ابداع المعاني التي يريدونها في قصيدته ، وهو بعد ذلك يستطيع ان يظهر مذهب في فن الشعر . ويظهر ان الدكتور بعد ان يصل به القلم الى عبارة « ويقربه

هل كان حبها خطيئة .. ؟

أصبح اتى القيت بهذا اللون من الرسائل الحزينة ظلالات
شاحبة كثية على حياتك الباسمة بين احضان الريف . وتحت سمانه
الصاحبة الجيلة . فأن يكن ذلك حقا ؟ وانك قد أصبحت تضيق ذرعا
حتى بهذا القدر النافه من العزاء الذى اجدته فى الكتابة اليك ، تروى
لقلب عن ونفس نائرة مضطربة ، فقد ينبغي لك ان تعلم ان الشجرة
التي انتصبت فى الفضاء : تهزأ بالأعاصير والأنواء . ساخرة متجذبة .
حتى عريت من اوراقها وتحطم الكثير من اغصانها ، ما يزال فى
جذعها الضخم العنيد . واعراقها الراسخة القوية ، ما يعينها على الصبر
الى نهاية المعركة : حتى ينجلي ليل محتها قليلا قليلا . ثم يطالعها فى
اعتقابه فجر باسم حالم ، يبت فيها اوراقا باوراق ، وينثى لها اغصانا
بأغصان . ويومئذ تفيى الطيور الى ظلال الوارف الظليل : لتلاها
هذه الاجواء الحزينة شدوا شجى النغم حلو الرنين . بعيد الى هذا
القلب الذى هانت عليك آلامه فيضا دافقا من حلاوة المني ولذة الامل .
واذن فاحتجج هذه الآلام من دونك بعد اليوم فى صدرى : فإ
يزال فيه قدرة على احتمال المزيد منها . وسأدير الحديث اليك فى
هذه الرسالة حول شخص لا تعرفه ، قد آتت بيتنا سهمه من الالم
المشترك ، وسأفرض اليك جملة حاله وجاع قصته على اقف منك
على رأى تراه له ، لانتى . وانت تعرف رأيت فى المرأة - تخرجت
من ابداء رأى قد يفسده ما احس اليوم فى قلبى بسببها من جراح
وتدوب . والحق انها قصة تعتبر تصويرا صحيحا لمشكلة من مشاكلنا
الاجتماعية . أو قل إنها ثورة عنيفة على بعض تقاليد الاسرة المصرية
وتحطيم لها . أو قل انها استجابة حارة لثغاف الروح ودعوة القلب ،
وهي لهذا الذى اسلفت لك جديرة بشئ من العناية غير قليل .

انحدر الى هذه الدنيا وحيدا لأبوين رزقاه على وجد البنين بعد
ما كادت الايام تشرف بهما على ربوة العمر . فتبأت له من هذه
الناحية طفولة ناعمة مدللة اسلمته الى دار من دور التعليم جعل
يتخطى سنى دراستها غير وان ولا متخلف ، حتى وصل الى السنة
الثانية من دراسته فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية . وعندئذ بدأ
الجدول العذب الذى كان يتسلسل فى طريقه سهلا رقيقا . يتحول
الى طريق ملتوية مليئة بالجنادل والاحجار . فقد توشجت بينه وبين

من الابتذال ، يدرك ان ما اورده ، غامض ، للتناقض الظاهر فيه
فيستدرك الأمر بان يقول : فهو يرى مثلا ان جمال الشعر يأتى
من انك تجدد اللذة الفنية فى نفسك كلما جددت قراءته ، ومن انك
تستكشف فى القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه فى
القراءة الاولى . بل تجد فى كل قراءة فنونا جديدة من الجمال لم تجدها
فى القراءات التى سبقتها .

هذا صحيح اذا تمكن الشاعر من ابداع قصيدته الصور الذهنية
التي تخلق للقارى . هذا الجمال . والصور الذهنية فى الواقع سداها
الالفاظ ولحنها المعانى التي تبرز تراكيب هذه الالفاظ فى عبارات
وجمل

فجمال الشعر اذن يأتى من طريق مذهب الشاعر فى فن الشعر
اذا كان هذا المذهب خليقا بان يظهر المعانى المقصودة بجمال قشبية
جذابة : ومذهب الشاعر فى فن الشعر ليس اجل خطرا من المعانى
الا اذا تمكن الشاعر من ان يودع قصيدته المعانى اولا . وتعبير
آخر لا يمكننا ان نعرف للشاعر بمذهب - خاص كان او عام -
ان لم يودع القصيدة التى ينشأ المعانى التى يقصدها .

فاذا انشأ الشاعر قصيدة وجاء الناس يتساءلون منه ماذا اراد ان
يقول بهذه القصيدة ، فهذه القصيدة اما ان تكون خالية من المعنى
وأما ان يكون صاحبها عند نظمها مرتبك الافكار والخواطر مزعزع
الحس والشعور الى حد انه لم يستطع ان يودع قصيدته معنى
معينا . فاذا كنا نسمى هذا شاعرا ونعتبر ما يودع فى منظوماته من
افكار مشوشة غير معينة ولا مفهومة غموضا ، ثم تتجرى تحت
طيات هذا الغموض ابداعا فنيا يزنه النا خيالنا المحض ، فيجب
ان نعتبر عوام الناس طرا شعراء مبدعين بكل ما نمر بين شفاههم من
عبارات مرتبكة يسوقونها عندما تتأثر قلوبهم ببعض الظواهر
والشاعر . ويجب اكثر من ذلك ان نعتبر الجمل المرتبكة المتقطعة
المبهمة التى يتم بها الطفل عندما يجابه منظرا غريبا او حادثة
جديدة غموضا ينطوى على ابداع فنى .

وبهذا تكون قد اسرفنا فى الاساءة الى الفن والى الابداع
والى الشعر والبيان اساءة عظيمة

عباس فضلى خماس

بغداد

اعلان من الادارة

الاشتراك من الآن يكون على النظام الجديد ، ولا يحاج
طلبه الا مصحوبا بالقيمة . أما المشتركون القدماء
فنستمر على ارسال المجلة اليهم حتى آخر السنة الاولى